مدخل إلى الأدب الصوفي:

1. التصوف: قراءة في المفهوم والنشأة:

2. مقدمة حول الأدب الصوفي

من خلال هذه المحاضرة سنحاول الوقوف عند مدخل في الأدب الصوفي؛ سيكون ذلك من خلال تقديم إيضاح حول مصطلح التصوف، نشأته ومراحله، كخطوة أولى نراها ضرورية لمعرفة الأدب الصوفي وتجلياته.

1- التصوف: قراءة في المفهوم والنشأة:

أسهمت عدة عوامل في ظهور الحركة الصّوفيّة في المجتمع الإسلامي، منها عامل "الزهد " الذي بدأ يظهر عند المسلمين نتيجة إقبال الناس على الدنيا لإشباع شهواتهم، مما جعلهم يبتعدون عن جوهر الدين الإسلامي الذي يحث الناس على العمل من أجل آخرتهم وليس من أجل دنياهم ، خاصة بعد توسّع الدولة الإسلامية نتيجة للفتوحات الإسلامية، وكثرت الأموال بين أيدي الناس مما دفعهم للاستمتاع بهذه الدنيا ولو كان ذلك على حساب دينهم. ويوضح ابن خلدون ذلك في قوله: " فلم فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوّفة "، وهذا دفع هذه الجماعة إلى الابتعاد عن " زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة " ، ويضيف الباحث أبو العلا عفيفي الصراعات التي نشأت بين المسلمين على الخلافة، وخاصة بين علي بن أبي طالب ومعاوية، وكثرت الخلافات الفقهية بين المسلمين حول مشروعية هذه الحروب وما نتج عنها من انقسام داخل المجتمع الإسلامي. وقد دفعت هذه الفوضى السياسية والاجتماعية التي سادت المجتمع الإسلامي بفئة من المسلمين إلى الفرار من الحياة، والابتعاد عن الناس، واعتمدوا الخلوة والتفرغ لعبادة الله هدفاً لحياتهم . وكأنهم بذلك يتبرّؤون من الدنيا والناس والحياة وما فيها ومن فيها.

أما عن مفهوم مصطلح التصوف والصوفية فيتداخل في ذلك معنيان: المعنى اللغوي، والمعنى الاصطلاحي ، فقد ورد معنى الصوفي اللغوي مشتقاً من كلمة " صوف " وهو هذا اللباس الخشن الذي كان يرتديه هؤلاء الناس صيفاً وشتاءاً، ويقول أبو نصر الطوسي أن لبسة الصوف كانت " دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء "، ويقول الكلاباذي " أنّهم سمّوا صوفيّة للبسهم الصوف " .

وإن كان هذا هو المعنى الشائع والأكثر قبولاً عند الصوفيّة، إلا أنّه وردت تفسيرات أخرى لمعنى الصّوفية ولكنّها كانت أقلّ قبولاً عند الصّوفية، ومن هذه التعريفات ما يرويه الكلاباذي من أنّهم سموا بالصوفيّة لقرب أوصافهم من جماعة من المسلمين كانوا في زمن الرسول في مكان يسمّى الصفة.

وعلى الرغم من ذلك فإنّه ليس كل من لبس الصّوف أصبح صوفيّاً، فليس كل من يلبس الصوف يطلق عليه " الصّوفي "؛ فأخذ معنى الصوفية والصّوفي ينحو حول تحديد دور من يتصف بهذه الصفة ليس حسب اللباس ولكن حسب حاله وسلوكه، وإيمانه وتقواه وورعه، فجعلوا الصوفي من تحلى بالصفاء والنقاء أي من صفاء قلوبهم ونقاء أسرارها، رغم أن الاشتقاق اللغوي من صفاء صوفي، إلا أن الصوفيين ربطوا التصوف بصفاء القلب والنفس؛ لأن الصفاء القلب لذكر الله تعالى هو سمو روحي.. من ذلك قول الكلاباذي في معرض تفسيره لمعنى الصوفيّة : " إنما سمّيت الصوفيّة صوفيّة لصفاء أسرارها ونقاء آثارها ".

فالصوفية هي حالة تُعبّر عن نزعة من العشق الإلهي، والتعلّق بالذات الإلهيّة ويسير المتصوف في مجموعة من الأحوال والمقامات حتى يصل إلى درجة الاتحاد بالذات الإلهية". وهذه التجارب الصوفية لا يُعبّر عنها بلغة عامة، وإنما يُعبّر عنها بلغة خاصة بالرمز، لذلك كثرت الرموز في الشعر الصوفي بخاصة، على أن أكثر هذه الرموز بشكل عام هي الرمز الغزلي والرمز الخمري ورموز الطبيعة. وبما أن التجربة الصوفية هي تجربة تقوم بالبحث عن المطلق، لكي تُعبّر عن أعمق ما فيها، إلاّ لأنه يتعذر الدخول إلى عالم المعرفة الغيبي اعتماداً على ظاهر اللغة اللفظي؛ لذلك يتمثل في أن كل شيء فيها رمزاً، كل شيء في ذاته هو وشيء آخر معه. وهي نزعة إيثار وتضحية بالذات والشهوات، وإيثار لما يبقى على ما يفنى، تضحية بالعاجل وإيثار لأجل ومجاهدة للنفس. وهي عكوف وانقطاع عن العبادة، وزهد بالحياة الدُّنيا والابتعاد عن الناس، ففي هذا انقطاع عن الناس وترك الإنسان يعبد الله وحده."و التصوف رؤية الكون بعين النقص، بل غضّ الطرف عن كل ناقص؛ ليشاهد من هو منزه عن كل نقص"

إذن لم يتفق العلماء والدارسون على تعريف واحد للتصوّف، واختلفت تعريفاتهم وفقاً للظروف التي أحيطت بالتصوّف، وتبعاً للمرحلة التي مرّ بها و" أي تعريف من هذه التعريفات لا يفي بالغرض، ولا يعطينا الصورة المتكاملة عن حقيقة التصوّف"، ومن قبَل العلماء والدارسين اختلفت الصوفية أنفسهم في تعريف التصوّف وتحديده اختلافاً بالغاً، حتى أربى ما وضع للتصوّف من تعريفات على المئات.

2- مقدمة حول الأدب الصوفي:

يمكن اعتبار الزهد المنبع الأول لأولى خطوات التصوف الإسلامي، ابتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، بوصفه مثالاً نابضاً بالمعاني المقدسة التي جمعت علم السماء والأرض، وباعتباره المشرب المعين الذي استقى منه المتصوفة حالهم، وما لفضل صحابته الكرام وتابعيهم في ترسيخ مذهب التحلي بسلوكه القويم في الزهد،والإقتداء بمنهجه السليم في الأخلاق. فكانت تلك الحركة الزهدية أول مشارب التصوف مع فارق بينهما هو أن **التصوف** زهد في الدنيا لكسب رضا الله، بينما **الزهد** بعد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة.

وقد نشط هذا التيار في أول أمره في بيئتين رئيسيتين هما: البصرة، والكوفة، وكان من أول شيوخه: الحسن البصري (ت110) هـ ، ورابعة العدوية (ت185) هـ ، والمحاسبي (ت243) هـ ، وذي النون المصري (ت245) هـ ، وأبو يزيد البسطامي (ت260) هـ ، والتستري (ت273) هـ ، والجنيد (ت 298هـ) ثم . الحلاج (ت309) هـ ، وأبي بكر الشبلي (ت 338).

وإذا كان في أدواره الأولى خلال القرنين الأوليين للهجرة يقف عند حدود الزهد والتقشف، والرغبة في تطهير القلب والروح، والتزام النّسك، والمبالغة في أداء الفرائض والاجتهاد في العبادة، وبلغ ذروته في ذلك عند(**أبي حامد الغزالي ت505 هـ)**، فإنّه تطور فيما بعد خاصة خلال العصر العباسي وأصبحت له مفاهيم فكرية، ودلالات فلسفية، ومعان معرفية، ولمع خلال ذلك نجم كل من الشيوخ: **السهروردي (ت587)هـ في حكمته الإشرافية، وابن عربي (ت638)هـ في وحدة الوجود، وابن سبعين (ت 668)ه في الوحدة المطلقة، وابن الفارض)ت 632)ه في قوله بالوحدة الشهودية.** من هنا وعن طريق هؤلاء وبهم عُدّ التصوف فلسفة الإسلام العلمية في الأخلاق، المؤدية إلى السعادة والغبطة نتيجة التلازم بين التوحيد والأخلاق..

فتُرجم ذلك أدبا وفنا صوفيا بخصوصية متميزة وفريدة من نوعها؛ خصوصية ناتجة طبيعيا عن خصوصية هذه التجربة المتميزة المنفردة في كينونتها ومنهجها. حيث باح من خلاله - المنجز الصوفي – المتصوفة - عن تجربتهم الخاصة، من جهة، كما واستطاعوا به، التأثير في غيرهم وكسب تبعيّتهم، من جهة أخرى. بالتعبير الصادق عن تجاربهم، وتحقيق التواصل مع متلقيهم، والتجديد في معانيه وأساليبه، وتطويع آلياته الفنية " وكان أن أوجدوا لنا أدبًا إسلامياً رفيعاً، تجمعت فيه كل الخصائص والميزات الفنيّة التي جعلته يتربّع على منزلة عالية، إذ فيه: العاطفة الصادقة، والتجربة العميقة، والوجدان الحي، والذوق السليم المتّقد بإشراقات الوجد وابتهالات الحب ومناجاة العشق الإلهي، إضافة إلى جمال العبارة، وروعة الأسلوب وجّدة المعاني.."

هذا باختصار قراءة في مفاهيم التصوف واشتقاقاته، وعوامل ظهور الحركة التصوفية ونشأتها ومراحلها، و مدخل حول الأدب الصوفي وأولياتها..

الإحالات: (المصادر والمراجع):